المحاضرة الأولى: الإنسان والرحلة

مقدمة:

خلق الإنسان محبا للحركة والتنقل وقد هيأه الله بذلك لإعمار الأرض، فالحركة روح الحياة وهي سمة أساسية في التركيب الجسدي والنفسي لأي فرد من المجتمعات البشرية.

ولقد ظلّ الإنسان على مدى عصور وقرون يتطلع إلى الآفاق البعيدة وتدفعه الظروف إلى التنقل للبحث عما يحتاجه، قد تضنّ عليه الطبيعة من ضيق في العيش أو خوف أو اكتشاف ما هو موجود في الأرض من خيراتها وكنوزها.

دوافع الرحلة

تتعدد الدوافع التي تحمس الإنسان للرحلات، وتختلف من شخص إلى أخر ومن قوم لقوم ومن عهد لعهد، إلا أنّها في الغالب لا تخرج عن أن تكون:

1 – دوافع دينية:

كأن يرتحل للحج إلى بيت الله الحرام، أو الدعوة إلى الدين الحنيف أو التبشير بالديانة المسيحية، أو زيارة الأماكن المقدسة، ومن قبيل ذلك زيارة المقابر والأضرحة.

تتمثل –عند المسلمين– القصد إلى حج بيت الله الحرام، ذلك أن الحج ركن من أركان الإسلام، يجهد المسلم في القيام به مهما تبعد به الدار، ولذلك فمن المألوف أن تنشأ أكثر الرحلات عن القيام بهذا الحج، وقد تتسع بعده إلى الرحلة الدنيوية التي تشمل زيارة البلدان التي يمر بها المرتحل، كما فعل ابن بطوطة، وابن جبير وهما من أشهر الرحالة العرب، فقد انطلقا من الدوافع الدينية ولكنهما لم يلزما حدها ولم يكتفيا بها.

وفي المكتبة العربية عشرات الكتب التي وثقت الرحلات الحجازية أو الرحلات إلى مكة والمدينة، ومعهما غالبا مدينة القدس التي يغلب أن يزورها الحجاج المغاربة خاصة في طريق حجهم أو رجوعهم. ويقرب من هذا الدافع ما نجده في رحلات الغربيين إلى بلاد العرب وغير العرب لزيارة الأماكن المقدسة "المسيحية"، ومنها الرحلة إلى بيت المقدس، لما فيها من أماكن دينية، وما يتفرع عنها ويقرب منها من أماكن لها صلة بحياة المسيح وتاريخ المسيحية في الشرق العربي، بالإضافة إلى غرض التبشير بالديانة المسيحية، وهو ركن أساسي في هذه الديانة عكس اليهودية.

2- دوافع تعليمية وعلمية:

وذلك عندما يرحل طلبة العلم من بلد إلى بلد للقاء العلماء والشيوخ ومن يمكن أخذ العلم عنهم، وكانت مثل هذه الرحلات قديما وحديثا.

3- دوافع سياسية:

وتشمل الرحلات التي تتم بطلب من الحاكم قديما لأداء مهمة رسمية، أو القيام بسفارة أو وفادة لإبلاغ زعيم آخر رسالة الحاكم. وتشمل هذه الطائفة رحلات المفاوضات والسفارات وما يقرب منها مما له صلة بشؤون الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول، وقد يكون هدفها استكشاف بلاد جديدة، ووصفها، كما هو الحال في المصنفات الجغرافية التي تعتمد على الاستكشاف الميداني للبلدان والمواضع والتضاريس التي تعرف بها. وقد يمتزج هذا الدافع بأسباب سياسية كما يبدو لنا من تلك الرحلات الاستكشافية إلى بلاد العرب، تلك التي سبقت الحركة الاستعمارية

ورافقتها، فهي تهدف إلى تقديم معلومات إلى دوائر الاستعمار للإفادة منها في السيطرة على بلاد جديدة لا يعرفها قادة الاستعمار. ومن أمثلتها رحلة أوجين دوما إلى صحراء الجزائر، سنة 1845 والذي يبين في مراسلاته الغرض من هذه الرحلة وهو الاستكشاف من أجل التوسع الاستعماري، في ص517 من كتاب الرحلة في الجزائر:

Le Sahara algérien- études géographiques statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie relève clairement de la littérature militaire. C'est le rapport qu'un lieutenant-colonel d'active, directeur central des affaires arabes à Alger, l'ouvrage est dédié au maréchal Bugeaud, gouverneur général de l'Algérie : il s'agit de connaitre pour dominer ; Daumas explicite les objectifs de l'enquête.

حيث نجده يذكر ذلك في مراسلة موثقة، ص 520 – 523

A Monsieur le maréchal Bugeaud

Après plus de deux années d'études opiniâtres, la direction centrale des Affaires arabes vient enfin d'accomplir le travail dont elle a l'honneur de vous faire hommage. La conquête de l'Algérie, maintenant achevée, a victorieusement résolu la question si longtemps débattue de l'occupation général.

في حين يقول الدكتور مصطفى الغاشي، إن الرحلة الأوروبية خلال الفترة الحديثة والمعاصرة ارتبطت ارتباطا قويا بالأهداف الاستعمارية، لذلك فهي لعبت دورا كبيرا في التمهيد للاستعمار من خلال الكشف عن الأحوال المتردية للشعوب والمجتمعات المستهدفة وضرورة تحضيرها.

الباحث المغربي مصطفى الغاشي يرى أن الرحلة الأوروبية ارتبطت ارتباطا قويا بالأهداف الاستعمارية

4- دوافع استكشافية وسياحية:

وهناك دوافع أخرى تتشابك مع ما سبق، مثل: السياحة، والدوافع التجارية والاقتصادية، والدوافع الصحية، ونحوها، فكل سبب يدفع المرء للارتحال والانتقال من بلد إلى بلد يمكن أن يمثل دافعا للرحلة، ولكن المهم هو أن يكتب صاحب التجربة وصفا لرحلته ومهمته، ويكون لديه القدرة والكفاءة لالتقاط الأمور المهمة التي تستحق التسجيل، والمقدرة على التعبير عنها من خلال اللغة والأسلوب الأدبي الذي ينقل الرسالة التي يريد مؤلف الرحلة إبلاغها وتثبيتها. وذكر أن الناس عرفوه منذ ذلك الوقت، مارسوه لاكتشاف المجهول في بطون الغابات والصحاري وشعاب الأودية، الرحالة البحارة ينزلون إلى البر لزراعة المحاصيل واختبار التربة، والتعرف على النباتات والحيوانات. والفينيقيون رحالة شجعان ولكنهم كانوا يحتكرون المعرفة، وبذلك تحاشوا المنافسة من الآخرين، ولم يكتفوا بذلك بل أطلقوا الشائعات والأساطير والروايات المخيفة عن الضباب في البحار، وعن التيارات الجارفة التي تحطم السفن وتودي بحياة المغامرين. أما الرومان فكانت لرحلاتهم دوافع عسكرية، فبعد أن استولوا على مصر عام 29 قبل الميلاد، أرسلوا رحلات الاستكشاف إلى أعالي النيل حتى وصلوا إلى مستنقعات بحر الغزال، ثم اندفعوا نحو بلاد الشرق من أجل تجارة الحرير. وقد عززت الرحلات الاستكشافية المعرفة بحدود العالم المستكشف حتى بلغت في عهد (بطليموس) شمال بريطانيا ومنها إلى الجنوب وحتى السودان والبحيرات الكبرى، ومن جزر الكناري في المحيط الأطلسي غربا إلى شرق الصين.

لكن، العرب كان لرحلاتهم أدب مختلف، وكتب تراثنا الإسلامي تزخر بالقصص والأشعار والأخبار التي تروي مغامرات الرحالة العرب، وتصف الأرض وما عليها من حيوان ونبات، والسماء وما فيها من كواكب ونجوم. والترحال عند العرب مرآة الأعاجيب وقسطاس التجارب، وعين الجغرافيا المبصرة، ولهذا ارتبط أدب الرحلات عند العرب بالعلم الجغرافي وعمل على تطويره. وإذا ما أردنا استعراض أدب الرحلات العالمي نجده عند الإغريق مرتبط بالثقافة والعلم، وعند الرومان مرتبط بالحروب والفتوحات، أما عند العرب فهو يجمع بين هذا وذاك. والسفر عند العربي المسلم هو من أسباب جلب الرزق، ومن يسافر يسمع ويرى العجائب، ويكسب التجارب، ويجلب المكاسب، والترحال يسفر عن أخلاق الرجال.

ولما جاء الإسلام أصبح الترحال مرتبطا بالفكر الإسلامي وبالفتوحات واللغة والأدب والفلسفة والاقتصاد، وفي هدي ذلك برزت مجموعات من الرجال كان يستهويهم الترحال والعلم الجغرافي في آن واحد، فالأصمعي كان في القرن الثامن عالما باللغة، وجغرافيا ورحالة. وياقوت الحموي كذلك، إذ كرس معلوماته وأخبار ترحاله في معجم البلدان الشهير. والواقدي في القرن التاسع ميلادي كان من أوائل الذين أعطوا للجزيرة العربية أوصافا جغرافية كاملة.